الشعر فى السودان

الأستاذ على العمارى

— ٥ —

على الرغم من وجود عدد غير قليل من الشعراء فى السودان ، فإن منزلة الشعر غير مرموقة ، ورايته غير مرفوعة ، وما زال كثير من الناس — حتى بعض المتعلمين — ينظرون إلى الشعر نظرهم إلى شىء تافه ليس بذى بال ، وقد كان الظن غير ذلك ، فإن علماء السودان الأعلام قد أحسنوا إحساناً محموداً حين نزلوا إلى ميدان الشعر ، وهم أهل التقوى ، وأهل الورع ، فقالوه ، وتناشدوه ، ونشروه على الناس . وحسبنا أن نعلم أن من كبار العلماء أمثال الشيخ أبى القاسم ، والشيخ الضرير ، والشيخ البنا الكبير ، قد قالوا شعراً فى النسيب ، ومن هذا النسيب نسيب رقيق عذب ، ربما كان يظن الجاهلون أنه مما لا يليق بمكانة العلماء . ولقد سرنى أن رأيت عالماً فاضلا هو شيخ علماء السودان الأسبق الشيخ أبو القاسم[1] هاشم يقول نسيبا مستقلا ، على قلة استقلال هذا الغرض فى شعر العلماء .

ولقد أحسن الأستاذ الفاضل سمد ميخائيل واضع كتاب شعراء السودان حين قال عن هذا العالم الجليل « ترى صورته وما عليه من برد الجلال والوقار فتظنه فقيها سيسمك الشعر بروح الفقهاء ، بينما هو يحمل بين جنبيه مع التقوى والنزاهة قلباً رقيق الحاشية » نعم إن أكثر شعره فى المدائح النبوية ، ولكن تشبيبه لا يصدر إلا عن نفس ذات أريحية وهزة . والحق أن التزمت ليس من صفات العلماء الفاقهين لحقيقة العلم ، وإنما هو خلة أنصاف العلماء . قال الأصمعى : أنشدت محمد بن عمران قاضى المدينة ، وكان من أعقل من رأيت :

يأيها السائل عن منزلى نزلت فى الخان على نفسى
يعدو علىّ الخبز من خابز لا يقبل الرهن ولا ينسى
آكل من كيسى ومن كسرتى حتى لقد أوجعنى ضرسى

فقال : اكتب لى هذه الأبيات ، فقلت أصلحك الله ، هذا لا يشبه مثلك ، وإنما يروى مثل هذا الأحداث ، فقال : اكتبها ، فالأشراف تعجبهم الملح . هكذا .. الأشراف تعجبهم الملح ، ومن تزمت فإنما يتزمت على نفسه .

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يشتهى النسيب ؟ فقال : أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا

وقيل لسعيد بن المسيب رضى الله عنه : إن قوماً من أهل العراق لا يرون إنشاد الشعر ! فقال : لقد نسكوا نسكا أعجميا ! وأنا فقد أعجبنى أن أرى فى علماء السودان من يخرج عن الأعراض الجافة المتزمتة إلى أغراض أخرى مقبولة طيبة ، قرأت للشيخ أبى القاسم قوله :

سلاها فهل قلبى سلاها وهل جرى حديث سواها فى فمى ولسانى
ألا إننى قد ضقت ذرعا وشفنى صدود الذى أحببته فجفانى

وقوله :

ما على عشاقها من حرج إن حب الحسن فى الطبع كمين
وعدتنى وصلها فازداد ما بى من الشوق إليها والحنين

إلى أشعار أخرى فى وصف المحبوبة ، والشوق إليها ، والحديث عنها ، والحنين إلى وصلها والتمتع بها .

وقديماً مرت سكينة بنت الحسين على عروة بن أذينة — وكان على زهده وورعه وكثرة علمه وفهمه رقيق الغزل كثيره — فقالت له : أنت الذى تزعم أنك غير عاشق وأنت تقول :

قالت وأبثتها وجدى فبحت به قد كنت عندى بحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى فقلت لها غطى هواك وما ألقى على بصرى

والله ما خرج هذا من قلب سليم قط . . . فليكن . أليس ابن قتيبة يقول ، وهو يتحدث عن الشاعر العربى وابتدائه بالنسيب ليميل نحوه القلوب ، يعلل ذلك فيقول : لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام » .

ولكن ، هل يمكن أن نعتبر النسيب فى شعر المدرسة القديمة التى نتحدث عنها ، نسيباً معبرا عما فى النفوس ، حاكيا عواطفها

(١) يقول صاحب شعراء السودان : أن لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أبو القاسم هاشم اليد البيضاء فى ترقية المعهد العلمى بالسودان ، فقد نظمه ، وأدخل عليه المكتبة العلمية التى كادت تكون فى صف أكبر المكتبات العلمية ، وهو صاحب الفضل فى نموها وترقيتها . أقول : والأمر كذلك ، وما زال هذا المعهد يرقى على أيدى شيوخه ، وسيصل الى ما نأمله له إن شاء الله .

وأحوال الوجد والصبابة ؟

وقد سبق أن أجبت عن مثل هذا السؤال ، فقلت : إن هذا النسيب نسيب تقليدى أكثر منه معبرا عن واقع الحياة ، ذلك أن الشعراء فى ذلك العصر حبسوا أنفسهم فى الشعر القديم ، وأطلوا على الحياة من نوافذه ، فكانوا صورة منه لا من حياتهم ، وقلدوه فى الغرض والطريقة ، وإن كان البون بعيداً فى الديباجة والمعانى . ونحن نضع بين يدى القارىء صورة للنسيب تكاد تكون عامة : ليس من البشر من تجافى الهوى قلبه ، فإن الهوى كرم فى الطبع ، يمثله اللفظ الرقيق ، والأخلاق الغر ، وهو الحياة ، والقلب من دونه بلقع من البلاقع لا ماء فيه ولا شجر ، أو هو مسرحة جرداء لا ظل ولا ثمر ، وأما العاذل فهو غليظ القلب ، جافى الطبع ، والحبيب . . الحبيب كل المحاسن حارت فى محاسنه ، فما القمر ، وما الكثيب ، وما غصن البان ؟

وهو مهفهف القد ، ضامر الخصر ، يكاد من ثقل الأرداف ينبتر ، ريقه عذب ، وثغره مؤشر ، عابث بصبه ، حانث فى وعده ، مسدود غدائره ، بلج محاجره ، دعج نواظره ، فى طبعه خفر ، وهو يصبى الحليم ، ويشفى السقيم ، وهى الظبى جيداً ومقلة ، وخدها الورد ، وعيناها السحر .

وهكذا يدور النسيب كله فى هذه الدائرة ، ولا يخرج عنها إلا القليل . ولكل شاعر حظ منها قل أو كثر ، وهذه أوصاف قد ألفناها كلها فى الشعر القديم ، ولئن كنا نقرؤها هناك مسوقة فى صور بديعة فيها الصنعة والروعة ، فإنا نقرؤها هنا — فى الأعم الأغلب — ساذجة غفلا .

قلت إن النسيب تبتدأ به القصائد ، وقل من الشعراء من خرج عن هذا التقليد ، وأكثر الشعراء من المشايخ وهؤلاء قل أن يقولوا غزلا مستقلا ، ومن عجب أن أكثر تخلصهم إلى أغراضهم يكون بإنكار الحب . هذا شاعر يدعى الهوى ، بل يقول إنه لا حياة له بدونه :

فتركتنى ما أستفيق من الهوى ... ونصبتنى للعاشقين مثالا

وهذا الذى لا يستفيق من الهوى ، والذى كان الغانيات أذ ه ، يمتع بين سمعه وبصره ، هو الذى يقول :

أماطت لثاما دونه الشمس زينب ... ولاح لنا منها بنان مخضب
وحيت فأحيتنا ومال بعطفنا ... حديث من اللاذى أحلى وأعذب
فأصبحت مشغوفا وملت إلى الصبا
على أن رأسى يا ابنة القوم أشيب
لعمرك ما هاجت غرامى خريدة ... ولا قادنى نحو الغواية مطلب
ولكن وجدا بالفضيلة هاجنى ... فجاء بأبياتى هوى وتصبب
عشقت التى تدعى الفضيلة إنما ... يقال لها فى مذهب الشعر (زينب)

نعم . وقد يقال لها ليلى ، أو مهدد ، أو دعد ، أو هند ، أو ما شاءوا من هذه الأسماء التى هى من الكنايات فى مذهب الشعر ، ولا وجود لها إلا فى ثنايا السطور .

وقد يجىء الشاعر بما لا يصدقه الواقع ، فيدلنا بذلك على أن للصناعة فى هذا الشعر مكانا .

نحن نعرف أن المرأة السودانية كهى فى صعيد مصر، محجبة متمنعة ، دون الوصول إليها أهوال وأهوال ، ولكنى مع إعجابى بهذه الأبيات وإحساسى بحرارة الحب فيها ، أرى أن صاحبها نهج فى غير نهجه ، وسلك غير الطريق :

أستغفر الله لى شوق يجدده ... ذكر الصبا والمغانى أى تجديد
وتلك فضلة كأس ما ذممت لها ... طعما ، على كبر برح وتأويد
أرنو لسالف أيام لهوت بها ... مع الأحبة حينا مورقا عودى
إن زرت حيا أطافت بى ولائده ... يفديننى ، فعل مودود بمودود
وكم برزن إلى لقياى فى مرح ... وكم ثنين إلى نجواى من جيد
لو استطعن وهن الساخات دمى ... رشفننى رشف معسول المنافيد
يا دار لهوى على النأى اسلمى وعمى
ويا لذاذة أيامى بهم عودى

ولهذا الشاعر المبدع الشيخ محمد سعيد العباسى غزل رقيق ، بل كل شعره رائع ، يقول :

يا بنت عشرين والأيام مقبلة ... ماذا تريدين من موءود خمسين
قد كان لى قبل هذا اليوم فيك هوى
أطيعه ، وحديث ذو أفانين
ولا منى فيك والأشجان زائدة ... قوم ، وأحرى بهم ألا يلومونى
أزمان أمرح فى برد الشباب على ... مسارح اللهو بين الخرد العين
والعود أخضر ، والأيام مشرقة ... وحالة الأنس تغرى بى وتغرينى
أفديه فاتر الألحاظ وقل له ... أفديه ، حين سعى نحوى يضربنى
يقول لى وهو يحكى البرق مبتسما ... يا أنت ، يا ذا ، وعمداً لا يسمينى
أنشأت أسمعه الشكوى ويسمعنى ... أدنيه من كبدى الحرى ويدنينى

وفى هذا الشعر تسجيل لتقليد عند إخواننا السودانيين ، ذلك أن المرأة — مها طال عهدها مع زوجها — فإنها لا تدعوه باسمه ، فلذلك حيث يقول (وعمداً لايسميني). هذا ما أعرفه عن الزوجة ، فهل تستحى العاشقة كذلك أن تدعو صاحبها باسمه ؟ العلم عند الحب !!

ومن الشعراء من يتساوق مع عاطفته ، فيشبب تشبيباً مكشوفا ويذكر ما نال من المتع مع صاحبته ولكنه يلتفت حواليه فيضطر إلى أن يذر الرماد فى العيون ، فيؤكد أنه لم يأت ما يسخط المروءة والدين :

كلما استعذب الدعابة منى لج فى عتبه ايمعجم عودى
وإذا اهتاج من حرارة قبلا تى ، أوما إلى بالتهديد
فإذا ما اندفعت اثمه أسلم لى ثغره الشهى الورود
يتغاضى عن احتكاكى فى الخصر ، ويلتذ عند مس النهود

أليس هذا فعل امرأة صناع فى الغزل ؟ أليس هو حديث عاشق مدمن ؟ ولكنه يسخر من القراء حين يقول :

لا تظنوا بى الظنون فإنى يعلم الله واقف فى حدودى
بخ ! بخ ! قد عرفناك تقف حيث شئت !

ولست فى الواقع أقضى على الشعر السودانى بالتقليد فى النسيب لأن الشعراء خلت قلوبهم من الحب ، لا فإن لكل إنسان من الحب نصيبا ، كما يقول ابن قتيبة ، وإن حب الحسن لكمين فى الطباع كما يقول شيخ علمائهم ، ولكن شتان بين إنسان يحب حباً هادئاً رزينا ، لا يوحى بشعر ، وبين إنسان يلذعه الحب ، وتكوى الصبابة قلبه ، فيعبر عن ذلك بشعر تحس وأنت تقرأه بأن فيه رائحة كبد تشوى على جمرة الهوى . وعندى أكثر هؤلاء الشعراء لم يلق الحب فى أشعارهم شيئاً من حرارة الجوى ، أو رقة الوصال .

ومما يلفت النظر أنك لا تكاد تجد فى هذه الأشعار وصفا للغادة السودانية ، فكل محبوباتهم يخجل البدر منهن ، وقد سرق الورد حمرة خدودهن ، وربما وجدنا لبعضهم لمحة خفيفة . قرأت للشيخ إبراهيم أبو النور ، وهو من علماء المعهد العلمى هذه الأبيات :

تخال الوجه منها بدرتم ونحسب ثغرها حب الغمام
وقد زادت ملاحتها بشرط على الخدين خطط بانتظام
محجبة فلم تبرز لشمس ولم تعرف محطات الترام

والذى استوقفنى فى هذا الشعر أمور ، فإنه ذكر الشرط ، وهو مايصنع فى أوجه السودانيات من علامات الجمال ، ولكل قبيلة من القبائل أشراط معينة ، بحيث يمكن معرفة القبيلة بمجرد النظر فى الوجه ، وهى عادة لا تزال موجودة فى كثير من القبائل . وطريقة صنعها أن يؤتى بموسى ، فتخط ثلاثة خطوط مستطيلة فى كل خد من خدى الطفل ، وهذه عامة . وبعض القبائل تضيف إليها شرطاً مستعرضا أو شرطين ، مستقيما أو مائلا ويعتدون ذلك من علامات الجمال .

وقد حدثنى الشيخ أبو النور هذا — وهو عالم واسع الاطلاع — أنه قرأ فى تاريخ عبد القادر الجزائرى أنه لما ذهب إلى مكة سئل عن هذه الأشراط ، أهى موجودة عند العرب ، فأجاب بالإيجاب ، وذكر على ذلك شاهداً قول شاعرهم :

رأيت لها شرطاً على الخد تحوى جمالا ، وقد زاد الملاحة بالقرط
فقلت أريد اللثم قالت بخفية فقبلتها ألفاً على ذلك الشرط

ثم قال الشيخ : وتسمى هذه الشروط الشلوخ والأموط ، وهذه الأخيرة من لغة حمير ، وأنشد على ذلك قول الشاعر :

ربى حبشية سلبت فؤادى فلم يمل الفؤاد إلى سواها
كأن لموطها طرق ثلاث تسير به النفوس إلى هواها

وعندى أن هذا الشعر أقرب إلى الصدق ، من الشعر الذى يصف المحبوبة بأنها بدر السماء ، أو زجاجة خمر :

أما الأمر الثانى الذى لفت نظرى فى شعر هذا الشيخ فقوله : ولم تعرف محطات الترام . وهل محطات الترام هنا كما هى فى كثير من البلدان ، ملتقى العشاق ، ومكان لصيد الظباء الحرام .

وكدت أوقن بأن هذا شعر شاب عصرى ، لولا أن الشيخ دائى بباقى القصيدة على أنه من العلماء ، وحسبك دليلا على هذا قوله :

فنى بالزكاة على فقير ومسكين كئيب مستهام

ولم ينس الشعراء النؤى والأحجار والأطلال ، لتتم صورة التقليد للشعر العربى ، فهذا شاعر يعيش فى عاصمة البلاد يقول :

أما وقد شطت بعهدد دارها ولقيت بعد فراقها الأهوالا
فتعال للاطلال نندب ماضيا ولى وأياماً مررن عجالا

(وبعد) فإنى على أى حال معجب بهذا النسيب سواء كان صدى لنفس مكلومة ، أو كان تقليداً للشعر القديم ؟ فإنه من حظ الشعر هنا أن يفيض هذا الغزل على ألسنة العلماء ، وإنه لكسب للأدب وللشعر ، وللتاريخ .

علي العماري
مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمى بأم درمان